

الفصل الأول

علم النفس وفن التعليم

في غمار نشاطنا العام والتيار المنبثق مما يعتمل في صدورنا من مثل عليا واهتمامات مشتركة — التي يستطيع أن يتبينها كل باحث عن الحقيقة في كل ما يحيط به من مناشط الحياة الأمريكية — يبدو أنه لا توجد ناحية مفعمة بالأمل وزاخرة بالرجاء أكثر من ذلك الاختمار والمخاض اللذين استمرا أكثر من اثني عشر عاما يعتملان في صدور المعلمين ويعبران عن الآلام وآمالهم .

ففي كل مجال من ميادين أعمالهم ووظائفهم التربوية ، فلنفس فيهم روحا وثابة هادفة للبحث والتنقيب عن لب ما يشغل بالهم في مهنة التربية ، ويشير اهتماماتهم بأفاقها العليا في أسنى مراتبها .

إن تجديد الأمم وبعثها وإقالتها من عثراتها يبدأ دائما من القمة على يد قادة الفكر فيها الذين يسمون بالحصافة وإحكام التدبير . ثم تنتشر هذه الاشعاعات وما يصاحبها من وعى وسمى ، تدريجيا وببطء ، الى الخارج والى أسفل .

إن مصير هذه الأمة بأيدي معلمينا ، وآية ذلك هو هذا التحمس والغيرة والجد التي تتجلى اليوم في محاولاتهم الموصولة لتنوير وتقوية وتدعيم أنفسهم . أليس هذا أكبر دليل على احتمالات التقدم والنهوض التي تنتظرنا في كل اتجاهات مثلنا العليا ؟

ان نظام التعليم القائم في الولايات المتحدة الأمريكية قد يكون بصفة عامة وعلى وجه الاجمال أحسن نظام وأفضل تنظيم موجود في أى بلد آخر من بلاد العالم .

فنظم التعليم في الولايات المختلفة ، تتصف بالتنوع والمرونة ، وتتيح الفرصة للتجريب ، وتشحذ روح المنافسة . وهى ظاهرة لا توجد على هذا النطاق الواسع في أى مكان آخر .

واستقلال كثير من الكليات والجامعات التى يسودها جو من الأخذ والعطاء والنقاش الحر بين الطلاب والمعلمين ، وشيوع روح المباراة والعلاقات العضوية السعيدة في مدارس المرحلة الأولى ...

ورسوخ تقاليد للتعليم في هذه المؤسسات التربوية التى انبثقت وتطورت من طريقة المحفوظات الأمريكية القديمة التى تلافى نظام الالتقاء البحت السائد في ألمانيا وسكوتلاندا التى تعطى أقل اهتمام لاعتبار شخصية الطالب كمرء ، هذا من جهة ، وفى الوقت نفسه تحاشت التضحية بالمعلم في سبيل فردية الطالب وشخصية المتعلم التى غالبا ما تصاحب النظام الانجليزي المعروف بنظام المريف ، كل هذه الأشياء مضافا إليها التعليم المختلط للجنسين الذى يؤمن بمزاياه الكثير منا ، هذه الاعتبارات كلها هى أحسن وجوه حياتنا المدرسية ونستطيع أن نشق منها أفضل البشائر بالقياس الى مستقبلنا .

فاذا كان لدينا مثل هذا التنظيم الرائع البارع فكل ما نحتاج إليه هو أن نلقجه بالعباقره ونملؤه وزوده بالرجال والنساء ذوى المواهب العظيمة والقدرات الماهرة الذين يعملون أكثر وأكثر فيه ، وله ، وبه ، ومن أجله ، ولن يمضى جيل أو جيلان إلا وتمسك أمريكا بزمام القيادة التربوية في العالم كله .

إنه لزام على أن أقول إننى أتوقع ذلك اليوم — فى شىء غير قليل من الثقة — الذى تصبح فيه تلك القيادة حقيقة مؤكدة مكتملة .

ولعل أكثر من أفادوا من هذا الاختمار والمخاض اللذين أشرت اليهما فى دوائر التربية هم نحن علماء النفس .

فإن الرغبة التى تحدد معلمى المدارس فى الوصول الى اعداد مهنى أكثر اكتمالا ، وأملهم فى الارتقاء الى ذلك المنسوب المهنى والروح الرفيع فى عملهم قد حفزتهم أكثر فأكثر على الاستماتة بنا نحن علماء النفس والتعاون معنا لكى نير لهم السبيل بالمبادئ الأساسية . وأنا على يقين من أنكم فى تلك السويكات القليلة التى تقضيها معا تتوقعون منى أن أزودكم بالمعرفة الخاصة بوظائف العقل وعملياته التى تيسر لكم العمل على نحو أكثر جدوى ونفعا فى الفصول الدراسية العديدة التى تتولون أمرها .

وأنا أبعد الناس عن بخص علم النفس قدرته فى تحقيق تلك الآمال .

إذ يجدر بذلك العلم ويتعين عليه حقا أن يمد يد المساعدة الجوهرية للمعلم .

يبد أننى أعترف ، وأنا عالم بمدى ما تتوقعونه وتأملونه ، أن بعض القلق ينتابنى من جراء ما قد يصيب بعضكم على الأقل من خيبة أمل اذا ما وجدوا فى ختام محاضراتى البسيطة أن صافى المريح أقل مما قدروا ، وأضال مما تصوروا ، وأصفر مما التمسوا .

وبعبارة أخرى فانى لست متأكدا تماما من أنكم ربما تكونون مفرقين فى الخيال والشطط بالقياس الى ما تتوقعونه من محاضراتى .

وينبغى ألا يكون ذلك مثار دهشة أو مفاجأة تأخذنا على غرة ؛ فلقد صاحب علم النفس فى بلادنا عجيج وزئير وهدير . فمعامل علم النفس أنشئت

وكراسى الأستاذية فيه صفت وورست ، ومجلاته تأسست ، وامتأ الجور بالشائعات الذى نشرت الضباب فى أرجائه . أما محررو الصحف التربوية ، ومنظمو المؤتمرات والاجتماعات ، فقد اصطنعوا الأساليب التى تضى عليهم صفة الابتكار ، وأحاطوا أنفسهم بهالات التجديد لكيلا يقلوا شأننا عن غيرهم من المجددين ، والمحدثين فى زماننا .

وبعض الأساتذة لم يتقاعسوا عن التعاون ، ولست متأكدا تماما من أنه حتى الناشرين لم يستجيبوا كليا لتلك الدواعى وآثروا التبلد والركود . لهذا أصبح « علم النفس الحديث » مفهوما دالا على اصطناع الشعوب بأفكار مشنومة تنذر بالسوء والشر ، وكنتم أتم جمهور المعلمين الواعين المتقبلين التواقين للأخذ بالجديد ضحية الخوض فى هذا الخضم المضرب بالكلام الغامض عن الغلم الذى يحير ويخاتل بدلا من أن ينير ويضىء . والذى يجعل الأمور ملتفة الى حد بعيد ، بدلا من أن يكشف عنها النقاب ويميط اللثام .

لذلك يبدو لنا كما لو كان المعلمون اليوم قد حملوا إصرا كالطلسم ، وكأنه القدر المقدر الذى لا فكاك منه ! ان قضية مهنتهم المتناسكة تماسكا كافيا فى ذاتها ، والملتحمة التحاما تاما فى مقوماتها ، قد سامتها المجالات ، ولاكتها المعاهد ، حتى أصبحت تقاطعها الرئيسية واطاراتها مهددة بالانحياز والضياع فى خضم من البلبلة والنسيج المهلهل الذى لا يتماسك لوهيه .

وعندما يكون الدارسون مفتقرين الى الاستقلال الفكرى والقدرة على النقد والتمحيص (وأعتقد أنكم أيها المعلمون اذا كان فيكم عيب كمعلمين لفرق المرحلة الأولى — ولو كان هذا العيب فى أخف درجاته وأقل كمياته — فهو أنكم على شىء غير يسير من الخنوع والطاعة) ، دعونى أؤكد لكم

أنتا لا نجد الدقة ولا الاتزان ولا سلامة التقدير في أولئك الذين يحصلون على « رخصة » تخول لهم أن تملئ عليهم القوانين إملاء من أعلى !
لذلك يلزمنى الآن بالقياس إلى موضوع علم النفس — وأنا ما زلت على أولى عتباته قبل أن ألج بكم أبوابه — أن أفعل ما في وسعى لأبدد هذه المعميات والأحاجى والطلاسم .

لذلك دعوني أقل من فوري إنه في رأي المتواضع لا يوجد شيء يسمى « علم النفس الجديد » جدير بهذه التسمية .

لا يوجد سوى علم النفس القديم الذى بدأ في زمان لوك مضافا إليه قليل من فسيولوجية المخ والحواس ونظرية التطور مع قليل من التفاصيل الاستبطانية المشدبة دون تطبيقات يفيد منها المعلم في معظم حالاتها .

إن المفاهيم الأساسية لعلم النفس هي وحدها ذات القيمة الحقيقية للمعلم وهي — اذا فعينا جانبا نظرية التطور التي سبقت الإشارة إليها — أكثر المفاهيم بعدا عن الجدة أو الطرافة أو الحداثة .

وأعتقد أن ما أعنيه بذلك سيبدو لكم أكثر وضوحا وجلاء في ختام محاضراتي هذه . وبالإضافة إلى ذلك أحب أن أقول إنكم ترتكبون خطأ كبيرا — إذا ظنتم أن علم النفس باعتباره علم القوانين العقلية — شيء يمكنكم أن تستتجوا منه برامج محددة ومشروعات وطرائق وأساليب للتعليم لكي تستخدموها بطريقة مباشرة في القصول الدراسية . هذا باطل الأباطيل وقبض الربيع .

فعلم النفس علم ، والتعليم فن ، ولكن العلوم لا تولد فنونا منها أبدا من تلقاء نفسها بطريقة مباشرة ؛ إذ لابد من توافر وسيط قوامه عقل خلاق ليقوم بعملية التطبيق عن طريق ابتكاره هو .

ان علم المنطق لم يجعل الانسان يفكر تفكيراً صحيحاً ، وعلم الأخلاق (اذا كان ثمة علم بهذا الاسم) لم يجعل الانسان يسلك سلوكاً مستقيماً .
 إن أقصى ما تستطيعه هذه العلوم هي أن تعيننا على أن نملك بزماء أنفسنا وتبين أنفسنا اذا بدأنا في أن نفكر ، أو في أن نملك سلوكاً خاطئاً ، ثم ننتقد أنفسنا بشكل أكثر دقة بعد أن نكون قد ارتكبنا الخطأ .

ان العلم يضع الخطوط فقط التي يتعين على قواعد الفن أن تقع في نطاقها ، وهي قواعد أو قوانين لا ينبغي لمبتع الفن أن يتخطاها أو يتعدى حدودها . ولكن أداء الفنان الخاص أو اجراءه المميز له الذي يصطنعه ايجابياً في نطاق تلك الحدود والخطوط — وقف على عبقرية الفنان وحده ولا شريك له فيه .

فقد تتفنن عبقرية معينة في أداء عمل ما بطريقة خاصة ، وقد ينجح فنان آخر في أداء نفس العمل بطريقة مغايرة — بيد أن كلا منهما لا يتخطى الحدود ولا يتجاوز الخطوط .

ان فن التعليم انبثق ونما وتطور في قاعة الدرس ، انبثق من روح الابتكار ونما من قدرة الخلق وتطور من الملاحظة الملموسة المشوبة بالتعاطف والود والفهم البصير .

وحتى عندما يكون الفنان عالماً نفسياً في الوقت نفسه (كما هو الحال عند هربارت) فان فن التعليم وعلم النفس سارا جنباً الى جنب ولم يشتق الأول من الثاني على أي نحو — لقد كان الاثنان متطابقين متوافقين متلازمين متناسبين ، ولكن لم يخضع واحد منهما للآخر . وهكذا نجد في كل مكان أن التعليم ينبغي أن يتفق مع علم النفس ويتناغم معه ولكنه لا يتحتم أن يكون نوع التعليم الوحيد الذي يتفق مع علم النفس لأن هناك طرقاً متعددة

مختلفة متنوعة للتعليم تتفق أيضا مع القوانين النفسية وتتنغم وتتاسب معها .

واذن فمعرفةنا بعلم النفس ليست ضمانا أكيدا مطلقا بأننا سنكون معلمين صالحين .

فاذا أردنا أن نكون كذلك ونرتقى الى هذا المنسوب ونصل الى تلك النتيجة فينبغى أن نكون مزودين بموهبة اضافية قوامها الكياسة والابتكار والقدرة الخلاقة التي تعيننا على أن نحدد ما نقول وما نفعل عندما نعلم المتعلم .

هذه المهارة ، أو الفطنة ، أو الحدق في ملاقات الطالب ومتابته . وهذه الكياسة في علاج الموقف المحسوس الملموس على الرغم من كونها ألف وباء فن المعلم ، إلا أن علم النفس لا يستطيع أن يساعدنا في أمرها أقل مساعدة . إن علم النفس وأى علم آخر من علوم التربية التي تركز عليه تشبه في الحقيقة علم الحرب . فلا يوجد شيء أكثر بساطة ولا تحديدا من مبادئ الاثنيين .

ففى الحرب كل ما يلزم عليك عمله هو أن تضع عدوك في موقف تجعل الموانع الطبيعية تحول بينه وبين النجاة منه اذا ما حاول ذلك . ثم توقعه في مأزق تتفوق عليه فيه في المدد ، في الوقت الذي تستدرجه فيه الى خديعة يتصور بمقتضاها أنه بعيد عن قبضتك ، وهكذا بالحد الأدنى من تعريض قواتك للخطر تنقض على قوته وتدمرها تدميرا وتأخذ ما بقى منها أسرى .

وهكذا الأمر بالقياس الى التعليم ينبغى أن تثير الاهتمام والشفخ في تلميذك بكل بساطة وسهولة بحيث يتوق الى ما تريد أن تعلمه إياه فيركز

مجهوده فيه ويسحب اهتمامه من كل ما عداه ثم تقدمه له بطريقة سائفة مقبولة سائفة مؤثرة تستقر في ذهنه ، وتذكرها بمناسبةها الى يوم مماته . ثم تتبع ذلك بأن تشيع فيه حب الاستطلاع النهم الذى يشره لمعرفة الخطوات التالية المتعلقة بموضوع درسه والمرتبطة بركيزة اهتمامه وشفقه .

فاذا كان هذا هكذا ، وكانت هذه المبادئ على هذا النحو من الوضوح فلن يكون هناك شيء سوى الانتصارات لأساتذة العلم ، سواء فى ميدان الحرب أو فى قاعة الدرس ، اذا لم يلجأ كل فريق منهما الى أن يجعلوا تطبيقاتهم فى تشكيل عقل خصومهم تشكيلا كيميا لا سبيل الى حصره .

ذلك أن عقل عدوك — التلميذ — يعمل بعيدا عنك بنفس الحدة والتحمس والاهتمام التى يعمل بها قائد المسكر الآخر بعيدا عن القائد العلمى .

فتاما مثلما هو الشأن فيما يفكر فيه ويريده العدوان المتنازعان ، وما يعلمان وما يجهلان بحيث يتعين على كل فريق أن يدركه ويلم به ويعدله ، فكذلك الأمر بالقياس الى المعلم والقائد الحربى يتعين على كل منهما أن يعرف ما يعرف الطرف الآخر ، وما يريد أن يعرفه ، لكنى يكون الانتصار حاسما .

هنا يكون التكهّن والإدراك ونفاذ البصيرة — لا الحذقة العلمية ولا الخطط النظرية المرسومة — هى العوامل الوحيدة المؤازرة المساعفة المعينة على كسب الموقمة . ولكن اذا كان استعمال واستخدام المبادئ النفسية على هذا النحو سلبيا لا ايجابيا ، فليس معنى ذلك أنها مجردة من النفع أو خالية من الفائدة على الرغم من ذلك .

إنها بالتأكد توفر الوقت والجهد ، وتلم شعث المحاولات والتجارب ، فلا يتبدل المجهود فى محاولات ثبت فسادها وبطلانها من قبل .

فحين نعلم مقدما — اذا كنا من علماء النفس — أن هناك طرقا خاطئة ، عندئذ ينقذنا علمنا النفسى من الوقوع فى تلك الأخطاء ، ثم إن ذلك يجعلنا أكثر استيضاحا لما نحن بصدد أدائه .

وبالإضافة الى ذلك فاننا نشعر بثقة وطمأنينة حيال أية طريقة نستخدمها بمجرد أن يثبت أنها تركز على نظرية تساندها وتدعمها بالاجراءات العملية فى الواقع التجريبي .

والأهم من ذلك كله أنه مما يلحق شعورنا بالاستقلال ، ويحى اهتمامنا وييمت شغفنا متجددا ، أن نرى موضوعنا من زاويتين مختلفتين ، ومن وجهة نظر نستطيع أن نتبين الزاويتين المختلفتين بوضوح فى آن ، فنتمكن من أن نرى الكائن القتى كجهاز حى (الذى هو عدونا مثلا) وفى الوقت نفسه نتصرف حياله بكل ما لدينا من كياسة وبصيرة لكى نستطيع فى الوقت نفسه أن تمثل فى داخلنا ونستحضر فى أخلاذنا العناصر الداخلية المحيية لأدائه العقلية وآلته الفكرية .

مثل هذه المعرفة الكاملة بالتلميذ — التى هى فى الوقت نفسه راجعة الى البداهة والتحليل — هى بالتأكيد نوع المعرفة التى ينبغى أن يهدف إليها كل معلم .

ومن حسن حظكم أتم الملمون أن عناصر هذه الآلة الفكرية يمكن فهمها بوضوح ، كما أن طرائق أدائها ميسورة الإدراك .

وحيث إن أكثر المبادئ والعناصر وطرائق الأداء تعميما هى بالضبط تلك الأجزاء من علم النفس التى يجدها المعلم ذات وقع مباشر ، فيترتب على ذلك أن الكمية اللازمة من ذلك العلم لجميع المعلمين لا يتحتم أن تكون كمية هائلة فليل من علم النفس يصلح التعليم .

أما أولئك الذين يجدون أنفسهم وقد هاموا جبا بهذا العلم ، فليفوضوا فيه ما شاء الله لهم العوض ، وليمضوا فيه إلى آخر أشواطه ، ولن يضيرهم ذلك كمعلمين ، بمعنى أنهم لن يكونوا أسوأ مما هم عليه بسبب ذلك ، على الرغم من أننا تبين في بعضهم شيئا قليلا من فقدان الاتزان بسبب الجنوح الذي نلاحظه فينا جميعا عندما نشتط ونبالغ في أهمية بعض أجزاء الموضوع الذي ندرسه، ونركز كل هنا فيه لكي ندرسه دراسة واسعة واسعة شاسعة مجردة .

إن الفكرة العامة البسيطة عن هذا العلم كافية وافية للغاية العظمى منكم بشرط أن تكون فكرة عامة صحيحة . ويمكنني أن أقول ان تلك الفكرة العامة من البساطة والوضوح والايجاز بحيث يستطيع كل منا أن يكتبها في راحة يده إذا جاز لنا أن نفعل ذلك .

أما آخر ما تحتاجون إليه كمجرد معلمين فهو أن تظنوا أنه من المحتم عليكم كجزء من واجبكم أن تصبحوا مسهين من أصحاب الحول والطول في العلم السيكولوجي أو أن تقوموا بالملاحظات السيكولوجية بطريقة منهجية رسمية .

إنني أخشى أن يكون بعض المتحمسين لدراسة الطفل قد أثقلوا كاهلهم بأن وضعوا عليكم بعض العبء بهذه الطريقة وعلى هذا النحو .

فلتمض دراسة الطفولة قدما ما شاء لها أن تمضي بكل الوسائل ، فهي دراسة منعشة لكل مفاهيمنا لحياة الطفل .

إن هناك فريقا من المعلمين يجدون لذة تلقائية في ملء المقررات الدراسية وقيد الملاحظات وتجميع الاحصائيات وتبويبها ثم حساب النسبة المئوية . وسوف تفضى دراسة الطفل بكل تأكيد إلى إخصاب حياتهم وتسميدها .

وإذا كانت النتائج الإحصائية لتلك الدراسة تبدو على وجه الاجمال ذات قيمة ضئيلة نحيلة فإن المقتطفات والأقوال المأخوذة من واقع حياة الأطفال والواردة على ألسنتهم ، وكذلك الملاحظات التي تسجل إبان مناشطهم المختلفة والتي تعتبر جزءا حيويا من تلك الدراسة — تعيننا بالتأكيد على أن نعرف إلى طلابنا معرفة وثيقة كما يتعرف الخليل إلى خليله ؛ لأن عيوننا وآذاننا تصبح أسرع في التقاط تلك العمليات والسبل التي تطالعنا في الطفل الذي أمامنا ، لمشابهتها لتلك التي قرأنا عنها كما وردت وسجلت في مقتطفات وأقوال الأطفال الآخرين ، والتي لولاها لأفقت من ملاحظتنا فنغفل أمرها أو نظل جاهلين بها .

ولكن بالله عليكم — دعوا الكثرة الكاثرة من المعلمين يمرون عليها من الكرام إذا فضلوا ذلك ، وأن يشعروا بأنهم أحرار في عدم إسهامهم في الاضافة إلى المزيد منها أو في تكبير حجم ركامها . ولنطو كشحا ذلك الادعاء الذي يتجلى في المواعظ المتجشأة التي تجعل منها واجبا حتى الأداء في صورة أوامر يجدها في منتهى السخف والملل أولئك الذين لا يجدون في أنفسهم ميلا مناسبا لها أو استعدادا مهنيا حيالها .

ولا أستطيع أن أتفق بشدة مع زميلي الأستاذ مونستربرج *Munsterberg* عندما يقول ان موقف المعلم من الطفل لكونه موقفا محسوسا وأخلاقيا يناهض تماما موقف الملاحظ النفسى لكونه موقفا تجريبيا وتحليليا .

فعلى الرغم من أن بعضنا قد يقرن الاتجاهين بنجاح فانهما لا يبد وأن يصطدما في مداراتهما عند معظمنا .

أما أسوأ ما يمكن أن يحدث لمعلمة جيدة صالحة فهو أن تصاب بضمير سيء حيال مهنتها ؛ لأنها تشعر بأن لا أمل يرجى منها كعالمة نفسية . إن المعلمين مبهوطلون بأثقال المهنة ومرهقون بالعمل الشاق بما فيه الكفاية وأكثر .

وكل من يضيف ولو جزئيا الى ذلك العبء أو مهمة اضافية فانما يحمل عليهم اصرا ، ويرهقهم من أمرهم عسرا . ولذلك فهو عدو للتربية .

فالضمير الشاعر بالاثم يزيد من ثقل كل الأعباء الأخرى ، ومع ذلك فأنا أعرف أن دراسة الطفولة وغيرها من نواحي علم النفس أيضا قد أتت ضماير مثقلة بالسوء في صدور كثير من المربين الأبرياء المخلصين حقا . إنه لما يسعدنى حقا اذا كانت هذه الكلمة العابرة التى صدرت عنى تستطيع أن تبدد هذا الضمير السيء إذا كان ما زال رابضا ومعششا فى نفوس أى منكم لأنه حصيلة ونتاج هذه الطلاسم والأحاجى المنظمة التى شكوت منها من قبل .

إن أحسن المعلمين وأفضلهم قد يكون أقصر مسهم فى الاضافة الى مادة دراسة الطفل ، وأحسن المسهمين فى هذا الصدد قد يكون أسوأ المعلمين وأكثرهم إفلاسا فى المهنة .

ولا توجد حقيقة ملموسة أكثر وضوحا من هذه البديهية . فلنكتف بهذا القدر بالقياس الى ما نعتبره أعظم اتجاه عام معقول للمعلم حيال الموضوع الذى سيشغل بالنا ويحتل اهتمامنا .